مَرْكَزُ الْفُهُومِ وَالْمَعَانِي

خِطَابُ زِيَارَةِ عِيدِ الْأَضْحَى 2013م - 1434هـ

الشيخ السيد محمد المصطفى سي المكتوم

13 paragraphes · 2013 · Promenade des Thiessois - Thiès · مناسبات

1 مَرَّةً، وَفِي إِحْدَى الْمُنَاسَبَاتِ الرَّمَضَانِيَّةِ، قُلْنَا لَكُمْ: إِنَّ الْإِنْسَانَ غَايَةٌ دُونِيَّةٌ تَحْتَاجُ إِلَى غَايَةٍ فَوْقِيَّةٍ، تِلْكَ الْغَايَةُ الَّتِي خُلِقَ الْإِنْسَانُ فِيهَا عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَنِ، صُورَةٍ تَلْتَفُّ حَوْلَهَا الْجَلَالِيَّاتُ وَالْإِكْرَامِيَّاتُ. وَلِكَيْ يَكُونَ مِنِ اسْتِطَاعَةِ الْإِنْسَانِ الْبُلُوغُ إِلَى أَجَلِّ وَأَقْصَى تِلْكَ الْغَايَةِ، مُنِحَتْ لِلْإِنْسَانِ كَرَامَاتٌ ثَلَاثٌ: الْكَرَامَةُ الْمُفَرَّدَةُ، وَالْكَرَامَةُ الْمُثَنَّى، وَالْكَرَامَةُ الْمُثَلَّثَةُ.

2 وَبِوَاسِطَةِ هَذِهِ الْكَرَامَاتِ يَمْتَازُ الْإِنْسَانُ عَنْ ذَاتِ الْوُجُودِ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ، هَذَا الِامْتِيَازُ الَّذِي يَتَمَخَّضُ مِنْهُ شَرَفٌ ظَاهِرٌ وَمَجْدٌ عَظِيمٌ. فَيَتَدَاوَلُ حَيَاتَهُ الْيَوْمِيَّةَ تَارَةً ذَلِكَ الشَّرَفُ الطِّينِيُّ، وَتَارَةً ذَلِكَ الشَّرَفُ الْعِلْمِيُّ، وَتَارَةً ذَلِكَ الشَّرَفُ الدِّينِيُّ، وَلِكُلٍّ مِنْ هَذَا الشَّرَفِ أَجْرُهُ الْحِسِّيُّ وَجَزَاؤُهُ الْمَعْنَوِيُّ؛ مَا يُصَدِّقُ أَنَّ كَلِمَةَ "السَّيِّدِ" لَيْسَ مُجَرَّدَ حُرُوفٍ وَأَلْفَاظٍ، وَإِنَّمَا هِيَ عَطَاءٌ رَبَّانِيٌّ تَتَكَامَلُ مَعَهُ أَسْبَابُ السِّيَادَاتِ كُلُّهَا: تَارَةً بِاسْمِ الصَّلَاحِ: ﴿**رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ**﴾ [النمل: 19] ، هَذِهِ فِي الْمَرْحَلَةِ الْأُولَى، وَفِي الْمَرْحَلَةِ الْآخِرَةِ: ﴿**وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ**﴾ [النمل: 19] ؛ وَتَارَةً بِاسْمِ الِاسْتِقَامَةِ: ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ**﴾ [التكوير: 27-28] ؛ وَتَارَةً بِاسْمِ الْعُبُودِيَّةِ، عُبُودِيَّةِ الْمَكَانَةِ لَا عُبُودِيَّةِ الْمَكَانِ: ﴿**وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ**﴾ [الصافات: 171-173].

3 وَالْإِنْسَانُ أَمَامَ هَذِهِ الْأَسْبَابِ مُخَيَّرٌ لَا مُسَيَّرٌ، فَتَخْضَعُ الْمَقَادِيرُ الْإِلَهِيَّةُ أَمَامَ هَذِهِ الْأَسْبَابِ عَالِيهَا وَسَافِلِهَا، حِسِّيَّتِهَا وَمَعْنَوِيَّتِهَا، إِنْسَانِيَّتِهَا وَرَبَّانِيَّتِهَا، لَكِنْ بِشَرْطِ أَنْ يُوضَعَ كُلُّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ، سَوَاءٌ كَانَ مَوْضِعُهُ الطَّبِيعِيَّ، أَوْ كَانَ مَوْضِعُهُ الْعِلْمِيَّ، أَوْ كَانَ مَوْضِعُهُ الْعَقَائِدِيَّ. فَيَقُولُ الْمَوْلَى مِنْ ذَلِكَ: "الْإِيمَانُ عُرْيَانٌ، وَلِبَاسُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ، وَزِينَتُهُ الْحَيَاءُ، وَغِنَاهُ الْعِلْمُ".

4 وَإِذَا كَانَ أَهْلُ الذِّكْرِ يَقُولُونَ: "لَيْسَ الْعِبْرَةُ بِكَثْرَةِ الْأَوْرَادِ، وَإِنَّمَا الْعِبْرَةُ بِكَثْرَةِ الْإِمْدَادِ"، ذَلِكَ أَنَّ طَرِيقَ الْأَوْرَادِ طَوِيلٌ طَوِيلٌ، وَطَرِيقَ الْإِمْدَادِ قَصِيرٌ قَصِيرٌ، وَإِنَّ ذَرَّةً قَلِيلَةً مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ أَفْضَلُ بِكَثِيرٍ مِنْ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ، وَلَوْ كَانَتْ تِلْكَ الْأَعْمَالُ لَتَنُوءُ مِنْهَا الْجِبَالُ؛ مَا يَحْمِلُ الْحَقِيقِيُّونَ عَلَى الْقَوْلِ: "لَيْسَ الْبَرَكَةُ فِي الْعُمُرِ بِكَثْرَةِ أَيَّامِهِ وَطُولِ زَمَانِهِ، وَإِنَّمَا الْبَرَكَةُ هِيَ أَنْ تُدْرِكَ الْإِمْدَادَ الْعَظِيمَةَ فِي آمَادٍ قَلِيلَةٍ". "لُتَخْ" ﴿**لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ**﴾ [القدر: 3] . ذَلِكَ أَنَّ الْعَطَاءَ الرَّبَّانِيَّ لَا يُعَدُّ وَلَا يُحْصَى فِي الْعَدَدِ، وَإِنَّمَا يُحْصَى فَقَطْ فِي الْكَيْفِيَّةِ؛ لَا يُعَدُّ وَلَا يُحْصَى فِي شَكْلِيَّةِ الْأَجْسَامِ، وَإِنَّمَا يُرَى أَوْ يُقَدَّرُ فِي صَفَاءِ الْعُقُولِ وَالْأَرْوَاحِ.

5 ذَلِكَ أَنَّهُ رُبَّمَا رُزِقَ الْكَرَامَةَ مَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ الِاسْتِقَامَةُ، لِأَنَّهُ شَتَّانَ مَا بَيْنَ الِاسْتِقَامَةِ وَالِاسْتِدْرَاجِ: ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: 182] . فَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ ذَلِكَ: «إِذَا رَغَّبَتْكَ الْبِدَايَاتُ زَهَّدَتْكَ النِّهَايَاتُ» ، وَذَلِكَ أَنْ تَكُونَ الْبِدَايَاتُ مُجَرَّدَ الْمَالِ، أَوْ مُجَرَّدَ الْجَاهِ، أَوْ مُجَرَّدَ الْعَشِيرَةِ.

«إِذَا رَغَّبَتْكَ الْبِدَايَاتُ زَهَّدَتْكَ النِّهَايَاتُ، فَنِعْمَتِ الْمُرْضِعَةُ إِذَنْ وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ».

6 ﴿**فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا**﴾ [النمل: 52] ، وَالظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ لَا شَكَّ، لَكِنْ ﴿**لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: 124] . لَكِنْ مَنْ هُمْ أُولَئِكَ الظَّالِمِينَ؟ هُمْ أَوْلَادُ الْفُقَهَاءِ الَّذِينَ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ وَلَا يَتَعَلَّمُونَ. هُمْ أَوْلَادُ التُّجَّارِ الَّذِينَ يَتَشَبَّهُونَ بِآبَائِهِمْ فِي الْإِنْفَاقِ، وَلَمْ يَسْبِقْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْكَسْبِ. هُمْ أَوْلَادُ الْمُلُوكِ الَّذِينَ لَمْ يَأْخُذُوا مِنَ الْمُلْكِ أَقَلَّ مِنْ نِصَابِهِمْ: ﴿**إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾ [النمل: 34] . هُمْ أَوْلَادُ الشُّيُوخِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ التَّظَاهُرَ بِأَحْوَالِ آبَائِهِمْ وَصُوَرِهِمْ، وَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ. ﴿**فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا**﴾ [النمل: 52] ، حَتَّى لَوْ كَانَ الظُّلْمُ فِي بَيْتٍ مِنَ الْجَنَّةِ لَخَرَّبَهُ اللَّهُ.

7 وَإِذَا كَانَتِ الْحَصَانَةُ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِلْكًا خَاصًّا لِلرُّؤَسَاءِ وَالْبَرْلَمَانِيِّينَ أَوِ الدِّيبْلُومَاسِيِّينَ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَضَعُ الْحَصَانَةَ إِلَّا لِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: أَوَّلًا، الْعَقِيدَةُ: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ [البقرة: 256]؛ ثَانِيًا، الْعَدْلُ: ﴿**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا**﴾ [المائدة: 8]، «لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا» [البخاري: 3475]؛ ثَالِثًا، الْجِوَارُ: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ**﴾ [التوبة: 6] . وَيَدْخُلُ فِيهِ عَدَمُ جَوَازِ الْحُجْرِ عَلَى السَّفِيهِ، لِأَنَّ فِيهِ إِهْدَارًا لِآدَمِيَّتِهِ.

8 إِذَنْ، لِكُلِّ شَرْعٍ حُدُودٌ: حُدُودٌ يَعْنِي التَّعَادُلَ وَالتَّوَسُّطَ فِي التَّنْفِيذِ، حُدُودٌ يَقْتَضِي التَّعَادُلَ وَالتَّوَسُّطَ فِي الْحُقُوقِ، حُدُودٌ تَقْتَضِي التَّوَسُّطَ فِي مُمَارَسَةِ الْوَاجِبَاتِ. فَيَقُولُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "ابْتُلِيتُمْ بِالْوَفَاءِ كَمَا ابْتُلُوا بِالصَّبْرِ، فَمَا صَبَرُوا لَكُمْ فَأَوْفُوا لَهُمْ". "كُنَّكْ" ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ**﴾ [آل عمران: 118].

9 لَقَدْ كَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَأْكُلُ مَعَ مُعَاوِيَةَ، وَيُصَلِّي مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فِي حِينِ دَارَ النِّزَاعُ بَيْنَهُمَا. فَنَصَحَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَلِيًّا بِاسْتِخْلَافِ مُعَاوِيَةَ عَلَى الشَّامِ، فَرَدَّ عَلِيٌّ قَائِلًا: "لَنْ يَرَانِيَ اللَّهُ مُسْتَخْلِفًا مُعَاوِيَةَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ".

10 فَأَنْشَدَ أَبُو هُرَيْرَةَ قَائِلًا:

نَصَحْتُ عَلِيًّا فِي ابْنِ هِنْدٍ نَصِيحَةً ✦ وَفِي الدَّهْرِ لَمْ يَسْمَعْ لَهَا قَطُّ ثَانِيَا

11 وَكَانَ مُعَاوِيَةُ هَذَا، ابْنُ أَبِي سُفْيَانَ، بَعْدَ فَشَلِهِ عَلَى إِدَارَةِ الْخِلَافَةِ، قَالَ: "هُمُّوا بِمَعَالِي الْأُمُورِ، فَإِنِّي هَمَمْتُ بِالْخِلَافَةِ وَمَا كُنْتُ أَهْلًا لَهَا، وَقَدْ بَلَغْتُهَا". وَالظُّلْمُ فِي الْحُكْمِ أَكْثَرُ مَا يَكُونُ فِي تَأْخِيرِ الْمُتَقَدِّمِ أَوْ تَقْدِيمِ الْمُتَأَخِّرِ، وَتَارَةً أَيْضًا يَكُونُ فِي تَكْذِيبِ الصَّادِقِ أَوْ تَصْدِيقِ الْكَاذِبِ، وَتَارَةً يَكُونُ فِي تَقْرِيبِ الْبُلَهَاءِ دُونَ الْأَذْكِيَاءِ. إِذَنْ، فَمَعِيَّةُ الْمَكَانَةِ مُقَدَّمٌ عَلَى مَعِيَّةِ الْمَكَانِ.

12 وَرُبَّمَا قِيلَ: "لَا تُعْطُوا الْحِكْمَةَ غَيْرَ أَهْلِهَا فَتَظْلِمُوهَا، وَلَا تُحَرِّمُوهَا أَهْلَهَا فَتَظْلِمُوهُمْ". وَلِذَا يَرَى الْعَاقِلُونَ أَنَّ الِاحْتِيَاطَ فِي الشَّرْعِ وَالْوِقَايَةَ فِي الِاخْتِلَاطِ مَعَ النَّاسِ أَهَمُّ شَيْءٍ؛ فَالْحِجَابُ النَّفْسِيُّ وَالْحِجَابُ الْحَوَاسِّيُّ مُقَدَّمٌ عَلَى الْحِجَابِ الْبَدَنِيِّ، وَشَتَّانَ مَا بَيْنَ الْحِفْظِ وَالْوِقَايَةِ وَالْحِجَابِ. ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا**﴾ [التحريم: 6]، "خَمْكِينْ لُتَخْ؟" ﴿**وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر: 9]. وَمَنْ جَمَعَ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْوِقَايَتَيْنِ وَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا.

13 وَقَانَا بِهِ الرَّحْمَانُ كَيْدَ عَدُوِّنَا ✦ وَنَجَّى بِهِ الْأَصْحَابَ مِنْ قَبْضَةِ الشَّرِّ
بِأَحْمَدَ بِالْمَحْمُودِ بِالْخَتْمِ بِالرِّضَا ✦ وَبِالْمُصْطَفَى بِالْمُنْتَقَى بِالْهُدَى الْبَدْرِ

وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.